أسس النظر اللساني عند الفخر الرازي(ت605هـ) من خلال "التفسير الكبير"

أ . الحسين بركات
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة –المسيلة–

إن اللسانيات المعاصرة تكاد تقترب من الفكر اللساني العربي القديم من خلال اعتمادها مناهج وعلوم الحقول المعرفية الأخرى، وهو الشأن الذي سبقت إليه اللسانيات العربية لما عرف عند روادها الأوائل من إلمام بعلم المنطق والفلسفة وعلم أصول الفقه وعلم الكلام...وكان للتراث العربي دور كبير في الحضارة الإنسانية في علوم شتى ومنها الدرس النحوي واللغوي العربي، وكما يرى عبد الرحمن الحاج صالح:" مستوى التراكيب ومفهوم العمل أخذه الغربيون من العرب قديما وحديثا". فكيف أسهم الدرس اللغوي والنحوي في مسار تطور اللسانيات ؟ وما هي مجالات إسهامه ؟ سنحاول تبيان ذلك من خلال الوقوف عند أحد علماء هذه الأمة وهو فخر الدين الرازي (ت 605هـ) والذي يُعد من أولئك الرواد الذين كانت لديهم نظرة تجريدية للغة باعتبارها ليست مجرد نظام من القواعد والحدود، بل لأنها تضم أيضا شبكة من العلائق الوجودية والتواصلية وفق منهجية دقيقة موضوعية .

لقد كان عطاء الرازي في تحديد ومعالجة بعض المسائل والمفاهيم اللسانية متطورا جدا في نظرنا قياسا بعصره وهذا العطاء شمل كثيرا من حقول الدرس اللساني كالصرف والنحو والدلالة والأصوات...وغيرها، لكنني في هذه المقالة سأقتصر على بعض المفاهيم

اللسانية والتي هي الآن تمثل محاور كبرى في اللسانيات الغربية مما يؤكد قيمتها وبالتالي فضلها في الدرس اللساني الغربي.

من تلك الأسس التي ناقشها الفخر في مقدمة كتابه (التفسير الكبير). نذكر: (دلالة اللفظ على معناه غير ذاتية) أي اعتباطية العلامة اللغوية و(الحكمة من وضع الألفاظ للمعاني) أي الجانب الاجتماعي في اللغة و(المعنى اسم للصورة الذهنية) و(اللفظ يدل على المعنى الذهني لا المعنى الخارجي)...إلى غير ذلك من المفاهيم التي سنحاول تبسيطها.

طبيعة العلامة اللغوية:

لقد اهتم الدارسون القدامى على اختلاف اتجاهاتهم العلمية من فلاسفة ولغويين وفقهاء، بطبيعة العلامة من حيث هي شيء محسوس بديل في الواقع المدرك من شيء غائب عن الأعيان.

يقول ابن سينا معرفا العلامة: "إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية، وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غابت عن الحس...ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه" ابن سينا.

ومن هنا يلاحظ المتأمل ويدرك أن تصور ابن سينا لدلالة اللفظ يتوافق تماما مع ما ذهب إليه دي سوسير في تفسير العلامة. فالعلامة في نظر ابن سينا هي ثنائية المبنى تتكون مسموع اسم / معنى. ملغيا بذلك من مفهوم العلامة في الواقع الخارجي أو المرجع الذي تميل إليه العلامة وذلك ما فعله دي سوسير أيضا، على عكس ما نجده عند فئة أخرى من الدارسين الأقدمين حيث ترى أن المرجع طرفا أساسيا في العلامة.

والعلامة اللسانية في نظر دي سوسير هي وحدة النظام وهي العنصر اللساني الذي يتكون من صورة سمعية ومفهوم أي الفكرة التي تقترن بالصورة السمعية.

إذن فالعلامة عند -دي سوسير- توجد بين مفهوم وصورة سمعية وليس بين شيء واسم، وللإشارة فإن الصورة السمعية ليست الأصوات المادية بخصائصها الفيزيائية؛ وإنما هي البصمة النفسية للصوت، لأن التتابع الصوتي إذا أخذ على حدة، فإنه سوف لا يكون علامة لسانية مستقلة، إنما هو ترتيب لأصوات مجردة ليس إلا.

كما أن السمات الدلالية التي تكون مفهوم الرجل لا تشكل علامة لسانية بمفردها، بل تقتضي الاتحاد التام بين الصورة السمعية والمفهوم.

والشيء ذاته نجده عند الفخر الرازي فيما يخص مفهوم العلامة أيضا لكنه يرى أن تكون هناك مواضعة أي علم بأن هذا الاسم وضع لهذ المفهوم يقول الرازي:" اللفظ المفرد لا يفيد البتة مسماه لأنه ما لم يعلم كون تلك اللفظة موضوعة لذلك المعنى لم يفد شيئا لكن العلم بكونها موضوعة لذلك المعنى علم بنسبة مخصوصة بين ذلك اللفظ وذلك المعنى...أنه إذا استقر في الخيال مقارنة بين اللفظ المعين والمعنى المعين فعند حصول الشعور باللفظ ينتقل الخيال إلى المعنى "

دلالة اللفظ على معناه غير ذاتية(اعتباطية العلامة اللغوية)

يولي الباحثون في اللسانيات والنقد الأدبي اليوم مبدأ (اعتباطية العلامة (**arbitrary of sign** أهمية كبيرة. ويظن كثير منهم أن هذا المفهوم من إنجازات اللسانيات الحديثة فحسب، وأن أول من جاء به دي سوسيرأول رواد البنوية في القرن العشرين. وقليل من الباحثين من تنبه إلى أن تراثنا العربي لم تكد تحظ قضية من قضايا الدرس اللساني الحديث بالبحث والدرس والتمحيص كما حظيت به هذه المسألة.

نضجت في القرون الأربعة الأولى من الهجرة الدراسة اللغوية، وتبلورت على مدى تلك القرون ملامح التصور اللغوي للألفاظ والصيغ والأصوات والتراكيب والدلالة والمعجم، بل والتصور الكلي لظاهرة اللغة في عمومها.

وقد وجد عند علماء العربية من الأسباب الدينية وغير الدينية ما جعل من النظر في العلاقة بين الدال اللغوي ومدلوله أمراً بالغ الأهمية لهم. ذلك أن جموع المتجهين إلى تقليب النصوص على وجوهها المختلفة، من النحويين والمعجميين والمفسرين والأصوليين وأهل الكلام وأعلام الفرق الإسلامية المعنية بتأويل النصوص – كالمعتزلة خاصة – والمتصوفة والبلاغيين والأدباء، قد عناهم بدرجات متفاوتة علاقة اللفظ بما يدل عليه، سواء من جهة المناسبة بينهما: أطبيعية هي أم عرفية؟ أم من جهة كونها توقيفية أو اصطلاحية، أم من جهة تمثيل الدال العالم الخارجي.

والمتصفح للتراث يلاحظ خلافاً قديماً بين العلماء في لزوم وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومعناه أو عدم لزوم تلك المناسبة. وينسب القول بالمناسبة إلى عباد بن سليمان من المعتزلة، وإلى الجمهور القول بضده. والعجيب أن الجمهور يعترض على هذا الرأي بالحجة التي يوردها سوسير في تأييد عدم وجود مناسبة طبيعية لازمة بين اللفظ ومعناه نفسها، وهي الاختلاف بين الدوال في اللغات المختلفة لمدلول واحد.

ويرى الرازي أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست طبيعية مخالفا المعتزلة ومنهم ابن جني الذي أورد قوله في كون بعض الألفاظ مناسبا لمعناه يقول الرازي:" دلالة الألفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية حقيقية خلافا لعباد لنا أنها تتغير باختلاف الأمكنة والأزمنة والذاتيات لا تكون كذلك حجة عباد أنه لو لم تحصل مناسبات مخصوصة بين الألفاظ المعينة والمعاني المعينة وإلا لزم أن يكون تخصيص كل واحد منها بمسماه ترجيحا للممكن من غير مرجح وهو محال وجوابنا أنه ينتقض باختصاص حدوث

العالم بوقت معين دون ما قبله وما بعده وإلا لم يرجح ويشكل أيضا باختصاص كل إنسان باسم علمه المعين...".

أما من جهة كونها توقيفية أو اصطلاحية فهو يعترض على الرأيين: من قطع بأنها توقيفية ومن قطع بأنها اصطلاحية ففي قوله تعالى:" وعلم آدم الأسماء كلها " [البقرة :31]، يرد الرازي بقوله لم لا يكون المراد من التعليم الإلهام؟ ويواصل: وأيضا لعل هذه اللغات وضعها أقوام كانوا قبل آدم عليه السلام ثم إنه تعالى علمها لآدم عليه السلام؟. كما يعترض على المعتزلة بأنه لا يمكن الجزم أيضا أنها حصلت بالاصطلاح مفندا أدلتهم يقول الرازي:" لا يمكننا القول بأن دلالة الألفاظ توقيفية ومنهم من قطع به ..." .

ثم يختم هذه المسألة بقوله:"...لما ضعفت هذه الدلائل جوزنا أن تكون كل اللغات توقيفية وأن تكون كلها اصطلاحية، وأن يكون بعضها توقيفيا وبعضها اصطلاحيا".

اللفظ يدل على المعنى الذهني لا الخارجي:

لقد استبعد الفخر الرازي المرجع من مفهوم العلامة إلا أن الغزالي لا يستبعده أما سوسير فإنه وافق الرازي، يقول الرازي :" للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان ولهذا السبب يقال: الألفاظ تدل على المعاني، لأن المعاني هي التي عناها العاني، وهي أمور ذهنية، والدليل على ما ذكرناه من وجهين:

الأول: أنا إذا رأينا جسما من البعد وظنناه صخرة قلنا إنه صخرة فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظنناه طيرا قلنا أنه طير، فإذا ازداد القرب علمنا أنه إنسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجية.

الثاني: أن اللفظ لو دل على الموجود الخارجي لكان إذا قال إنسان العالم قديم وقال آخر العالم حادث لزم كون العالم قديما حادثا معا وهو محال، أما إذا قلنا إنها دالة على المعاني الذهنية كان هذان القولان دالين على حصول هذين الحكمين من هذين الإنسانين وذلك لا يتناقض ".

ويقول :" المعنى اسم للصورة الذهنية لا الموجودات الخارجية لأن المعنى عبارة عن الشيء الذي عناه العاني وقصده القاصد , وذاك بالذات هو الأمور الذهنية...فإذا قيل أن القائل أراد بهذا اللفظ هذا المعنى فالمراد أنه قصد بذكر ذلك اللفظ تعريف ذلك الأمر المتصور ".

الحكمة من وضع الألفاظ للمعاني:

يبين الرازي أن التواصل الإنساني يمكن أن يتم بطرق كثيرة منها الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء لكنه يرى أن أسهل طريق هو الذي يتم باللغة حاجة اجتماعية ولها خصوصيات لا تتوفر في الباقي يقول الرازي :" في الحكمة من وضع الألفاظ للمعاني: وهي أن الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته فاحتاج إلى أن يعرف غيره ما في ضميره ليمنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير، ولا بد لذلك التعريف من طريق والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف مافي القلوب والضمائر بهذه الألفاظ ...".

من خلال هذا البحث المتواضع لمفهوم العلامة وطبيعتها عند فخر الدين الرازي (ت 605هـ)، يتبين أن أسلافنا قد أدركوا أهمية العلامة من حيث هي حقيقة مادية في النظام التواصلي تحيل إلى حقيقة مجردة غائبة.

وكما يقول الدكتور "عبد العزيز حمودة في كتابه (المرايا المقعرة):" إن اللغويين والبلاغيين العرب القدامى وضعوا أسس علم اللغة الحديثة الذي يرتبط عادة باسم السويسري "دي سوسير" قبل الأخير بأكثر من عشرة قرون" .

ويؤكد أننا يجب أن لا نلوم إلا أنفسنا لانبهارنا السلبي بالآخر الغربي وإهمالنا واستهانتنا بتراثنا اللغوي والنقدي عموما، بل احتقار بعض المثقفين العرب له .

الهوامش:

[1]- ابن سينا، العبارة (الشفاء)، ص112

[2]- الفخر الرازي، التفسير الكبير ج1، ص.35

[3]- الفخر الرازي، التفسير الكبير ج1، ص34.

[4]- ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج1، ص 34.

[5]- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج1، ص34 و ص.35

[6]- الفخر الرازي، التفسير الكبير ،ج1، ص.35

[7]- الفخر الرازي، التفسير الكبيرج1، ص.35

[8]- الفخر الرازي، التفسير الكبير،ج1، ص.36

[9]- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج1، ص.36

[10]- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص

مصادر ومراجع:

1- القرآن الكريم. (برواية حفص عن عاصم)

2- الرازي(فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسين علي التميمي البكري ت604هـ)، التفسير الكبير، ت: هاني الحاج، وعماد زكي البارودي، المكتبة التوقيفية،د.ط، مصر، 2003 م

3- دي سوسير، علم اللغة العام، ت:يوئيل يوسف عزيز, ط3، آفاق عربية، الأعظمية، بغداد، 1984

4- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة

5- ابن سينا، العبارة (الشفاء).